البلاد أمست ظلاماً
صارت ملأى بالظلال .. فمن ذا الذي رأى انساناً تملكه الخوف يعيش بسلام
لا تدع أصدقائك الذين اصطحبوك ينتظرون عند سفح الجبل
لا تدع الأم التي ولدتك تقذف الى ساح المدينة

شاعر سومري

الوعي البائس للمثقف المتكيف

الدكتاتورية وفردوس الثقافة العراقية المفقود

فاضل سوداني

ينبئنا هذا الشاعر الذي عاش في الألفية الثالثة قبل الميلاد، عن الخراب الذي عم بلاد سومر، فحفر الخوف في روح الإنسان السومري، إنه يحدثنا عن فلسفة هذا الخوف بطريقة وكأنه يحذر المثقف العربي المعاصر ويؤشر مهماته ومواقفه التي تساهم في إنتاج تلك الثقافة الإنسانية الفعالة التي تحدد مستقبل ومصير الإنسان والأمة والمدينة. وكان هذا الشاعر السومري يتحدث عن التكيف السلبي للمثقف العربي الذي يوصل الخوف، عندما يخون مثل هذا المثقف ذاته ومهماته التاريخية ويتكيف مع المشروع السلطوي الاستثنائي. إن تعميم الخوف في المجتمع وشعور الإنسان ببؤس ثقافته يتحقق عندما يتخلى المثقف عن حصانته الداخلية ودوره التاريخي فيعم الخواء في روح الأمة، وضمن أهمية هذا الدور، لا يكون من المنطقي مناقشة الواقع الثقافي وفعالية المثقف في تطويره ما لم يأخذ بالإعتبار أهمية الدور التاريخي للمثقف غير التكيف، حيث ينشأ التكيف عندما يكون هناك خواء فكري يميز فعاليات الإنسان الحياتية والفكرية، فالتكيف هو الوقف السلبي للمثقف المتساهل مع ذاته وتاريخ كينونته لأن مثل هذا المثقف هو الذي تفوح منه رائحة خبيثة (حسب ميشيل غيلدرود). بل تكيف نتن نتيجة لموقفه المتصدئ، وبمعنى آخر، إن مثل هذا المثقف المتكيف لا يؤثر في تطوير العملية الفكرية بمسارها الديالكتيكي في مجتمعه إلا سلبا، لأنه يتخلى عن دوره ووجوده الفاعل. وبهذا فإن المثقف هنا يتحول إلى أداة في آلية السلطة الاستثنائية تاريخيا وآنيا، ويكون مستعدا للمساهمة في برامجها لتهيئة الظروف التي تخلق عدمية الثقافة والفن. والمساهمة في تهيئة ظروف اجتماعية أخرى تعمم مجانية العنف وتعيد الغرائز المتوحشة في روح الإنسان لتأخذ الأولوية في سلوكه. ويكون هذا واضحا في الأنظمة الشمولية والدكتاتورية.

إن المثقف المتفاعل غير المتكيف هو الذي يؤثر كذات مبدعة في العمليات الفكرية والاجتماعية التي لا بد أن تتطور ضمن المفهوم العام للتطور الديناميكي، وبهذا فإنه يؤثر إيجابيا. والإبداع هو القادر على تعميق انسجام المثقف لذاته (المثقف= منتج الثقافة المبدعة). والموت القسري والجماعي والاضطهاد والحروب المدمرة اللامجدية في المجتمعات اللاديمقراطية التي تشكل منفى المثقف الداخلي، تتناقض مع الوعي والنبل الإنساني لشهود العيان من المفكرين والفنانين، وتتناقض أيضا مع (إجبارهم) قبولهم أو تبريرهم لعنف السياسة. أما المثقف الذي أجبر على ترك وطنه للعيش في المنفى فإنه يتعرض للتشويه المدمر عندما يقتلع -لأسباب كثيرة- من منبع وعيه، من المكان الأول... البيت الأول، من الباب ودكته الأولى... الوطن الأول، ويتعذب تاركها في حضريات نفي الروح والفكر واللغة والأخلاق وفي لهوة الظلمة من ذلك العالم الغريب، الفردوس الأوربي، عالم المتاهة والآلية والعواطف المبتسرة المتجردة والملتبسة في غربة لانهائية ما دام قد تعود عليها، وفي زمن المنفى الذي يمتلك القدرة على محو آلية الذاكرة اللاإرادية، ذاكرة الماضي، ذلك الخزين الماضوي الذي يشكل أساس الحصانة الداخلية للمثقف، لأن المنفى بطبيعته يفرض اختلاط الأزمنة، بل إن آنية المنفى (وخاصة في البلدان المتطورة التي تعاني الاغتراب التكنولوجي) تحتم التخلي عن هذه الحصانة الذاتية، أي الذات في وجودها الماضوي، فيبدأ التوهان الحقيقي والاضمحلال في قدرات دور المثقف الإبداعي قياسا لدوره الحقيقي الذي يمكن أن يلعبه وهو في وطنه، مثل إمكانية المساهمة في تأسيس تاريخه وتاريخ أمته عندما يمتلك مسؤولية سن طرائق الفكر والثقافة في مجتمعه، لأنه (كالطير الضائع عن عشه كذلك الإنسان الضائع عن مستقر أسه) كما يقول شيكسبير.

ومن خلال هذا التناقض بين نقاء ونبل ذات الفنان وبين التزام الصمت على دموية النظام الاستثنائي، يكتشف المثقف أنه حالة من اللاإنسجام، أو الغربة القاسية والمنفى الداخلي وهو ما زال في وطنه. وهذا هو أيضا منفى للثقافة والفكر واللغة في وطنها.

المثقف المتكيف

إن أي موقف لعملية تطوير الثقافة والفكر هو استثناء تاريخي على شتى الأصعدة. ولهذا فإن الكثير من البلدان غير الديمقراطية يشكل ديالكتيك الثقافة الحرة خطورة على أنظمتها وخاصة إذا كانت الأمية تشكل نسبة كبيرة في المجتمع. وإذا أضيف إلى هذا الامبالاة وتساهل المثقف مع ذاته، فإن السكونية سوف تتجذر في التطور الاجتماعي والثقافي وفي الذات الفردية. إن الهدف من خلق سكونية مثل هذا الواقع وتهيئة ظروفه هو الخوف من تأثير الثقافة وإلغاء دور المثقف التفاعل غير المتكيف فيتشكل منفى الثقافة في:

1. أما أن ينسجم المثقف مع هذه السلطة الاستثنائية مدارة لمصلحته الأنانية الفردية أو الطبقية ويكون ذاته.
2. أو الانغلاق على الذات والضياع في متاهات الصمت أو التباس الوضوح.
3. أو خيانة الذات والوقف التاريخي فيتحول إلى تاجر للخردوات ليعيش الكذب والزيف، ويصاب بشيزوفرينيا الذات الفنية.
4. أو يبتعد عن المساهمة في بناء العمليات الاجتماعية -الفكرية في وطنه ويفضل المنفى، ابتغاء لتفرد الموقف وحرية الإبداع خوفا من أن يربط بحجر الرحى ويقذف في أحد الأنهار العربية المذكورة في الكتب المقدسة فيضيع قضاء أو قدرا.

إذن، هل يتحتم على المثقف العربي في الظروف الاستثنائية أن يتحمل وسائل التعذيب التي يهيئها له نظامه ليجبره على التخلي عن ذاته وحصانته الذاتية من أجل أن يصمت إزاء إمعان هذا النظام بتخلفه! هنالك التباس في موقف المثقف وعدم وضوح هدفه، يبدأ الغموض في إبداعه والتماهي بدوره التاريخي وحياتي، فتبرز البلبلة الفكرية ويبدأ استعداد السلطة الاستثنائية لسحق المثقف الفعال غير المتكيف، او إفراغه وإجباره حتى يتكيف ليصبح هو ابنها المخلص الذي يكون على استعداد لتنفيذ المشاريع الثقافية والفكرية ذات الطابع السياسي البوليسي التخريبي. وبهذا يكون تابعا للسياسي وجزءا من ما كنة السلطة، التي تمنحه وسادة الخدر، ليكون صاحب الوعي البائس بامتياز. وهذا يعني توريط الذات في الوعي المشوه وتحويل المثقف الى انسان متكيف مع آلية النظام ومرتكزا أصغر أفيه مستعدا دائما، ليس للمساهمة بعبث السلطة وتشويهها لديناميكية الثقافة تاريخيا فقط، وانما العبث بالقرارات المصيرية وتكيفها لمصلحة النظام التي تنعكس في (الحروب العدوانية غير الجدية مثلا).

وبما ان الثقافة والفكر هي عمليات معقدة في تطورها، لأنها تعتمد على العوامل الذاتية، اي المفكر والمثقف وتكوينه الطبقي والفكري ومدى حساسيته الذاتية إزاء الحقيقة، وكذلك العوامل الوضوعية، اي التراكم الكمي والكيفي للتطور الثقافي والفكري تاريخيا، فان دور المثقف ومكانة الثقافة في التطور العام يجب ان يكونا اكثر وضوحا ليدفعا بالمثقف المتفاعل غير المتكيف الى ان يحمل مصباحه الناقد (مصباح ديوجين) وسط ظهيرة الخراب الفكري والاجتماعي الذي يتميز به مجتمعنا، بل عالمنا، للبحث عن التحيل، او عن الخدر والسكونية في روح الإنسان وروح الامة. ان مشكلة المثقف العربي المبدع تكمن في اهمية مقاومته للضياع والبلبلة الفكرية والقمع والاستلاب والاغتراب التي تحتمها الظروف الاستثنائية في وطنه، او مشكلة آليات حياة المنفى التي يعيشها اختياريا او قسريا. ومن اجل الوصول الى الوعي الخلاق لتطوير ذاته وعدم السقوط في شيزوفرينيا الذات والوعي (حسب إفهومة كير كغارد الفلسفية) عليه ان يعتمد على تملك ذاته وصلابتها وبنائها، اي اختيار ذاته من جديد والانغمار في الابداع الحر والمستحيل ورفض مغامرات السياسي لخدمة الانسان ثقافيا (في مجتمع عربي مهووس بالتعاويذ التي تقود نحو الهاوية مثلا).

ان عصرنا هذا هو زمن الفكر صاحب العقل الديناميكي المسؤول الذي يرفض التكيف، وان ظروف الكتابة المرتزقة غير المسؤولة في عالمنا هذا الذي يتحكم به الصيارفة والبنوك والبوليس السري تؤكد النظر الى التاريخ بمنظور جديدة، وكذلك فان حساسية المثقف يجب ان تتلامس مع الازمنة الجديدة، لأن التكيف يخضع كل صنوف الثقافة والفكر للزيف. ومن هنا تأتي أهمية عدم تساهل المثقف مع ذاته حتى يصبح فاعلا في وجوده

ان المثقف المتكيف وصاحب الوعي البائس هو المتساهل المحصن دائما بالتبرير الجاهز الذي لا يخدم الحقيقة. غير ان خواء اية ثقافة وعدم فعاليتها متأتية من خواء روح المثقف بالدرجة الاولى وعدم تطور الظروف الموضوعية. وتضخم عبوديته لمصالحه الانانية الأنية الصغيرة. وهذا يفرض عليه الالتزام بثقافة تخدم مصالح الانظمة الاستثنائية.

كل هذا يتطلب التفكير الجدي بطبيعة الثقافة التي يحاول ان ينتجها المثقف المتكيف صاحب الوعي البائس في وطنه او منفاه، والتي تتناقض مع تلك الثقافة الفاعلة تاريخيا، التي تخضع للتطور الديالكتيكي الواثر في الانسان، والتي تساهم في بناء المجتمع وإغناء ذات الانسان وروح الامة.

الاختلاق وتزوير الذاكرة

إدوارد سعيد

ناجح المعموري

شهدت الحضارة الانسانية طفرات تقنية كبيرة وواسعة جداً، في كل الحالات العلمية والثقافية، وهي طفرات غير محكومة بنسقية متصلة - على نحو ما يرى فوكو - ولكنها خلقت مدارات جديدة تماماً وغير متوقعة، وضعت الناس جميعا أمام تطورات مذهلة، وفتحت منافذ للبحث عن الهوية، والاقتراب - ولو قليلاً - من الأصول عبر السرد، هذه الأصول التي هي تشكلات ايديولوجية ونظام من الرموز، جعلت من الناس أكثر علاقة وحميمية مع البنابيع الأولى، لأن عصرنا صار عصر البحث عن الجذور، كما يقول ادوارد سعيد، أنه عصر الشعوب المهمشة والقوميات المقموعة يضغط سرود مرحلة نحوهم، صاغت تاريخا وشطبت على تاريخ حقيقي.

السرود الحكائية، أو (التحبيك السردي)، لعبت دور أبارز أفي التلفيق واختلاق ذاكرة جديدة، توفرت لها المتون السردية الغفيرة التي تساعدها في النهوض ويشير إدوارد سعيد إلى صعود تعشيد آخر وجديد، مهم ومركزي وله علاقة وثيقة مع الذاكرة بوصفها مشروعا اجتماعيا وسياسيا وتاريخيا، ويقصد به سعيد التزوير وإسكات لسان الآخر الذي لجأت إليه المركزية الغربية - من خلال الاستشراق - في محاولة لإعادة إنتاج التاريخ عبر السرد، اعتمادا على حشد من الأساطير والعقائد والطقوس، وحتى الأزياء وبالقي الوروثات، وقد مارست تشويشا وتخريبا للأصول المبكرة. واستعان هذا الاختلاق بالمقدس المزور من أجل أهداف سياسية قديمة ومعاصرة، لعبت دور أبارز أفي تفتيت الجغرافية والأمكنة ورحلتها باتجاه خصائص ثقافية جديدة، كرستها تبادلات دينية / ثقافية، جعلت منها مهينة بحيث تتمكن من إسكات السرد التاريخي الحقيقي أو تعطيله وتحريفه، مستعينة بالسرد التوراتي الذي لم يجد مرجعيته في الحضريات والمدونات. لقد اكتفت البنية الذهنية الخاصة بالذاكرة من خلال تركيب التفاصيل الخاصة بإعادة الأساطير، للتماهي مع ذاكرات الشرق وحضاراته، وقد استطاع هذا الصوغ - كما يقول غارودي - انتاج عدد من الأساطير، بلورت أهداف ووظائف المؤسسة الإسرائيلية وحولت أوهام التاريخ اليهودي إلى وقائع وأساطير تكرست عبر الاتصال والتبادل. فالتاريخ وأوهامه المتمثلة بإنتاج ذاكرة جديدة، يعني بالضرورة، البحث عن أمكنة وفرت عناصر مساعدة لصوغ حقائق سياسية، وجدت الكثير من الدعم والمؤازرة عبر النصوص الدينية / الثقافية التي كرسها وهم القداسة والكلام اللاهوتي المزور للواقع والتاريخ. لكن تلك النصوص فوضت التدوين من أجل تزوير الجغال، لكي يتقدم تراث يقف خضر التراث أسبق وأعمق، وهو حضارة فلسطين التاريخية، ممثلة بسرد وطني وقومي - إذا جاز التعبير - وصعد في الطرف الآخر ما هو أكثر خطورة من أوهام التاريخ والذي تمثل بإسكات السرد الفلسطيني وإعلاء لسان الصهيوني الذي مارس تشويها للهوية العنية بالأصول الفلسطينية الدعومة بالاكتشافات التي أكدها علماء يهود، تضمنت إشارات واضحة وصريحة لأكاذيب الوعد الإلهي وجغرافية التوراة، مثلما أكدت وجود إكذوبة خطيرة جدا، هي أكذوبة (العصر الذهبي)، التي روج لها علماء يهود، وحصل بذلك إلغاء كامل لمرحلة تاريخية.

هذا التحول والانحراف في سيادة النموذج وخلخلته هو الذي أجأ كيث وإيتلام إلى إعلان حقائق كثيرة ومهمة في تاريخ الشرق الأدنى القديم، ولاسيما تأريخ إسرائيل، هذا التاريخ الذي ظل إلى الآن متأرجحا بين نقيضين اقواهما الدحض والتفكيك. ولعل توصلات طومسون أكثر قوة وخطورة بالنسبة لإسرائيل، لأنه استهدف الروايات الدونة وزحزحها، مخلخلا النموذج التوراتي الذي افترض قداسة يتمكن بها من كبح القراءة الجديدة المعتمدة على تفاصيل الكشف والحضريات، التي وفرت فرصة لإعلاء السرد الفلسطيني الذي انتجته (الجماعات التخيلة)، اليقظة والحيوية في مراقبة الجذور والإمساك بالذاكرة وتطويرها، لأن الماضي يستمر مادام يتحدث إلينا - على حد عبارة هول -، لكن هذا الحديث ليس عملية بسيطة بين ذات حاضرة بصورة كلية وماض حقيقي، فهي تحدث من خلال دهاليز الذاكرة والفانتازيا والسرد والأسطورة. إن الماضي ليس بالضرورة ماضيا متخيلا، لا واقعيا، ولكنه - كما يقول بول ريكور - موضوع ليس بالإمكان التأكد منه، لأنه باختصار لم يعد موجودا، ولهذا فإن خطاب التاريخ أو السرد التاريخي لا يمكن التعامل معه إلا بطريقة غير مباشرة. ومن هنا، تكمن القرابة بين التاريخ والسرد التخييلي.

أثار كيث وإيتلام ملاحظة جوهرية حول مشروع أدوارد سعيد الخاص بالاستشراق، وهي أنه أغفل السرد التاريخي ولم يهتم به، مع العلم بأن توجه الاستشراق المركزي هو العمل على نمذجة مرويات الخيال وأساطيره وجعلها ذاكرة مهيمنة، زاحمت الأصول الكنعانية المعروفة. وأشار وإيتلام - أيضا - إلى تأكيدات أدوارد سعيد المستمرة والقائلة بأن وعي التاريخ ومعرفة تفاصيله لا تتم إلا عبر الهوية السياسية والاجتماعية في العصر الحاضر، وقد خضع الماضي لتوجهات وتفاصيل تورائية، وتحول فيها إلى ماض مقدس. والأساطير التي أشار لها غارودي هي وقائع بالتبادل، تمتعت بقداسة مطلقة، اي بتفويض التوراة كليا بالحقائق والوقائع التي دحض بعضا منها الدرس الاكاديمي والآثاري الجديد.

لقد عبر المفكر الراحل أدوارد سعيد، بعد إطلاعه على كتاب وإيتلام (إختلاق إسرائيل القديمة)، عن إعجابه بالانجاز الثقافي المهم وتميزه بالاختلاف أولا والمحاورة مع عدد من المهتمين بالتاريخ والآثار، وأكد سعيد في دراسته (الاختلاف والذاكرة والمكان)، أن محاولة وإيتلام في إنتقاد مشروعي الخاص بالاستشراق جريئة وشجاعة، وهو محق بذلك، لأن سعيد لم يلتفت إلى الخطاب التوراتي، وهو خطاب يشكل جزءا مهما وحيويا من الاستشراق الذي تخيل الأوربيون الشرق السرمدي من خلاله ومثلوه بالطريقة التي رغبوا أن يروه بها، وليس كما هو وليس كما يعتقده أهله الأصليون. وهكذا، فإن الدراسات التوراتية التي اختلقت إسرائيل الرفوضة من بيئتها، جلبت حضارة وتقدما - كما هو مفترض إلى هذه المنطقة -، وقد عززتها الأيديولوجيا الصهيونية واهتمام أوربا بجذور ماضيها. واستنتج سعيد مؤكداً "لقد استعبد هذا الخطاب الأغلبية الساحقة من سكان المنطقة، إنه خطاب السلطة الذي جرد الفلسطيني من أرضه وماضيه".

تعامل الراحل سعيد مع السرد التوراتي بوصفه سلطة قوية وكبيرة، تمتعت بعناصر ثقافية متنوعة، مكنت الحركة الصهيونية من إنتاج تاريخ كامل، تحول التزوير فيه عبر الاتصال وتحقيق بلاغة الإجماع إلى حقائق هي جزء مهم من التاريخ. ولعب هذا التزوير دورا في الشطب على شعب كامل وحضارة عريقة، أكدتها وما زالت الحضريات الأثارية. لذا أشار ادوارد سعيد إلى أن السرد التاريخي قد نجح في توحيد اليهود حول هدف مشترك، تمثل فيه طموح وأحلام الحركة الصهيونية التي عملت من أجل أن يستعيد (الشعب وطنه)، وتعزز العلاقة معه، وما رس - من ثم - إلغاء الشعب كامل.

إن الأمم - كما يقول هومي بابا - مثل السرديات، تفقد جذورها في خضم الزمان وأساطيره، ولا تستعيد ألقها إلا من خلال الخيال. ولهذا، نشأ صراع قوي جدا من (التحبيك) بين الذاكرات وأساطيرها القامعة من جهة والأخرى المتخندقة بوصفها أصلا من جهة ثانية. وقاد هذا الصراع إلى إنتاج السرد التاريخي، الساعي إلى إلغاء تاريخ أسبق، وبالتالي، التمكن من الشطب على توارخ حضارية تجاورت مع بعضها، والإبقاء على المعرفة الشيطانية والجامعية والتخيلية لـ(الشرق المبهم الغامض) في القرن التاسع عشر حادة ومتوترة - كما قال سعيد في (الاستشراق) - إذ لعب الصراع بين العرب والصهيونية الإسرائيلية دورا أكبر في تأكيد الاختلاف الثقافي لإسرائيل وتوالي تكريسات الذاكرة والمكان داخل فلسطين، لذا، عمدت الصهيونية إلى إزالة كل العالم المساهمة في صياغة الذاكرة الفلسطينية، وهذا ما لاحظته كارول بارد نشتين في دراسة وصفها أدوارد سعيد بالحساسة جدا، فهناك قصدية للخطاب الصهيوني في إزالة الذاكرة الفلسطينية من الطبيعة من خلال زرع الأشجار بطرق تعزز النسيان الجمعي، أن لم نقل الانتقائي.

إن الدراسات التوراتية ليست متورطة في الامبريالية الناظرة إلى الوراء وحسب، بل إنها تامرت في عملية السلب، أو على أقل تقدير وإذا ما اقتبسنا عبارة من ادوارد سعيد، تواطأت بالصمت في عملية السلب. إن بناء الكيان الذهني / المختلف (لإسرائيل القديمة) قد أسكت تاريخ السكان الأصليين في فلسطين، وزور ذاكرتهم، الأمر الذي كرس أوهام السرد التوراتي، التي تعامل معها الدرس التاريخاني الجديد بوصفها مخيالاً أدبياً، وجد فرصته الواسعة، وحركته القوية، ضمن المناخ الثقافي الجديد.

أخيرا، كان كتاب وإيتلام (اختلاق إسرائيل القديمة) أفضل كتاب قرأه أدوارد سعيد عام 1996 وقد قال عنه: "أنه عمل أكاديمي من الطراز الأول، إسلوبه بالغ الدقة، وكاتبه يتمتع بجرأة كبيرة في نقده للعديد من الفرضيات حول تاريخ إسرائيل التوراتي".

وسائل استراتيجية لخلق مجتمع مدني عراقي

باسم الانصار

بعد السيرة الحضارية الطويلة التي انجزتها البشرية من عمرها الطويل للوصول الى المرحلة الحياتية او الى الرؤية الافضل المناسبة لحياتها، بات واضحا للعالم، او على الاقل للعقول النيرة المتحررة من جميع السلطات الدينية والاجتماعية والسياسية ان الانسان وحده هو الذي يمتلك القدرة على تسيير امور حياته بنفسه من دون الحاجة الى اية سلطة خارجية .. خصوصا ان التاريخ اثبت لنا ان صناعة التأريخ هي صناعة بشرية .. ولا اود الخوض اكثر في تفاصيل الامثلة التأريخية او الرؤى الفلسفية التي تدعم وجهة النظر هذه .. فالمهم الان هو التفكير في كيفية خلق الحالة الحياتية الملائمة لمجتمعنا العراقي الذي نحلم به وبقدراتنا العقلية الحالية، ومن دون اللجوء الى اي استنساخ اعمى لحالات او رؤى حياتية تاريخية كانت تناسب مرحلتها الحضارية التي برزت فيها ولم تعد تناسبنا الان .. واظن ان من اهم الاشتراطات المناسبة لخلق هذه الاستراتيجية هو التركيز على الايمان بقوى الانسان وارادته الحرة في تحقيق الحياة الافضل له ولمجتمعه .. فالاستراتيجية التي نقصدها هنا هي الطرح الفكري والفلسفي الذي تستند اليه الثورة الاجتماعية الكبيرة التي نود احداثها في مجتمعنا العراقي .. فأشتراط اي تغيير تاريخي وحضاري هو الارتكاز على الايمان بالانسان وبقواه وامكانياته غير المحدودة .. ونجاح كل ثورة اجتماعية وسياسية يتوقف على متانة وصلابة الاسس (الاستراتيجية) العرفية والفلسفية التي ترتكز عليها .. فمعروف ان كل الثورات الاجتماعية والسياسية وحتى الادبية والفنية التي حدثت في التأريخ، قد استندت على اسس فكرية وفلسفية طرحت من قبل النخبة المثقفة لاحداث التغيرات والمنعطفات التاريخية في حياتها .. لذا ولكي نحدث ثورة كبيرة وشاملة في مجتمعنا العراقي، يجب ان نبدأ اولا بثورة على البنية الذهنية التي يرتكز عليها .. ومعروف ان البنية الذهنية لمجتمعنا بشكل عام تستند على التفكير الغيبي والاسطوري والخرافي في تفسير التاريخ، كما ان الدعائم التي يرتكز عليها بنيانه الحضاري او الحياتي تتمثل في عدم الايمان باستقلالية الفرد واحترام حريته وحقوقه الشخصية .. فنواة مجتمعنا هي الاسرة وليس الفرد .. والفرد منصهر في بوتقة الاسرة، وذلك لاعتبارات اقتصادية بالدرجة الاساس ولاعتبارات اجتماعية وتاريخية طويلة وشائكة بالدرجة الثانية.

الشيء الذي اود قوله هو اننا، ومن اجل احداث متغيرات كبيرة في مجتمعنا ومن اجل خلق مجتمع مدني يرتكز على التفكير العقلاني والعلمي والنطقي ويستند الى دعائم واعمدة حقوق الانسان والديمقراطية، علينا ان نؤسس ستراتيجية فكرية تحاول ازاحة التراكم والتكلس من العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية التي ينتمي اليها مجتمعنا العراقي، وتحاول تذبيت القيم الجميلة المتوفرة لديه مثل المحبة والايثار والتسامح.

واظن ان اهم وسائل ايصال هذه الاستراتيجية الى المجتمع وبشكل يهيئه سيكولوجيا ومعرفيا لاستقبال هذه الاستراتيجية بشكل ايجابي ومن ثم التفاعل معها بالشكل الصحيح بحيث يدفعه الى الايمان بأسسها العقلانية والعلمية ودعائمها الديمقراطية واحترام حقوق الانسان هما: مناهج التعليم ووسائل الاعلام. فعلى مناهج التعليم الدراسي المخصصة لطلاب المراحل الدراسية كافة ان تلتزم الحيادية في طرحها.. ولنأخذ مادة التاريخ الاسلامي مثلا على هذه الحالة.. اذ يجب ان تحاول مناهج التعليم ان تطرح مادة هذا التاريخ بشكل حيادي ومن دون اضفاء اي صبغة قدسية عليه، كما يجب ان يعامل هذا التاريخ في المناهج الدراسية على انه تاريخ بشري يمتلك السلبيات مثلما يمتلك الايجابيات، وكذلك يجب ان تتضمن هذه المادة تاريخ نشوء الاديان والمحاولة على التعامل مع الاديان على انها جزء من تاريخنا وتراثنا، ومن دون الامعان بمطالبة الطالب على حفظ نصوصها القدسة. ومن الامور المهمة الاخرى في مناهج التعليم الاخرى تركيزها على اهمية دور المراة في المجتمع وعلى انها ليست جزءا مكملا للرجل بل يجب التركيز على خلق الايمان بان المراة كائن مستقل بكل شيء، لها حقوقها وعليها واجباتها التي لا تختلف ابدا عن حقوق وواجبات الرجل. ويجب التركيز، منذ المراحل الدراسية الاولى، على احترام حقوق الانسان كافة ومن دون استثناء، والتأكيد على غرس مفاهيم النسبية وحتمية الاختلاف وغيرها من المفاهيم الحضارية التي تبعد الطالب عن الايمان المطلق الاعمى وعن الاقصاء والتهميش لكل ما يخالفه.

وهذا الامر ينطبق على وسائل الاعلام الرسمية، التي يجب ان تتصف بقدر عال من الموضوعية والحيادية في طرح القضايا الاجتماعية والاسرية. والشيء الاهم في وسائل الاعلام ابتعادها عن الترويج لاي دين او طائفة او قومية، بل ينبغي ان يكون ثمة ترويج لمبدأ الوطنة الذي يحفز ويحاول تثوير القدرات الكامنة لدى الانسان. كما انه من الضروري جدا ان يركز الاعلام على البرامج العلمية والفكرية بالاضافة الى البرامج النوعة الاخرى، ويجب ان يحاول ايصال رسالة مهمة جدا الى المجتمع وهي ان التنوع في الحياة هو ضروري وحتمي وليس اختياريا وعلى الاعلام ان ينشر التفكير النطقي والعقلاني والعلمي، وعليه ان يبتعد عن الترويج للتفكير الغيبي والاسطوري.

ان استلهام تجربة الحضارة الاوربية في انتقالها من عصر الكنيسة الرجعي الى عصر التنوير والثورات العلمية والثقافية والاجتماعية والسياسية، من خلال قراءة الطروحات الفكرية التي سبقتها وعاصرتها مفيد جدا في عملية خلق مجتمع مدني يحترم مفاهيم الديمقراطية واستقلالية المؤسسات القضائية والتنفيذية والتشريعية ومفاهيم احترام الفرد واستقلاليته وحريته في اختيار النمط الحياتي المناسب له، ومبادئ احترام المراة وحقوقها من خلال التركيز على قدراتها الكبيرة المبدعة في المجالات كافة وتنوير المجتمع بأن توفير الفرص المناسبة للمراة هو الكفيل بجعلها عنصرا أفعالاً ومؤثرا في الحياة العملية للمجتمع بدلا من تعطيله واخماده من خلال ابقاء او حصر دورها في الواجبات البيتية.

لذا فان دور مناهج التعليم الدراسي التنويرية وسياسة وسائل الاعلام العقلانية والعلمية هي اهم السبل الكفيلة لايصال الاستراتيجية الفكرية المتنورة التي نود ايصالها للمجتمع بشكل فعال ومؤثر بما يكفل اسس مجتمع مدني حضاري وانساني بكل جوانبه الحياتية .. اما تفاصيل وحيثيات هذه الاستراتيجية فانها ظروف كثيرة، على النخبة الفكرية ان تلتقي عبر ندوات ومؤتمرات موسعة وطويلة تطرح بحوثا علمية رصينة في مجالات علم الاجتماع والنفس والفلسفة وغيرها من الاختصاصات ذات الصلة بالموضوع، تكون قادرة على تأسيسها وتنفيذها.

ولا اظن ان ذلك بالشئ المستحيل.